

مقاومة سكان مدينة المدية للاحتلال الفرنسي (1830-1835م)

“The Resistance of the Inhabitants of the City of Médéa to the French Occupation (1830–1835).”

بهية بلحوت¹

المتحف الجهوي للمجاهد بالمدية bahybelh@gmail.com

تاريخ النشر: 2026/07/ 10

تاريخ القبول: 2026/05/ 17

تاريخ الاستلام: 2026/04/ 13

ملخص:

يهدف هذا المقال الى تسليط الضوء على المقاومة المستميتة التي أبداها سكان مدينة المدية في مواجهة الحملات العسكرية الفرنسية المتتالية (1830، 1831، 1836، 1840). ففي أعقاب سقوط الباي بومزراق عام 1830، دخلت المدينة في حقبة عصيبة اتسمت بفراغ سياسي حاد وانفلات أمني أطلق العنان للفوضى، مهددا الأرواح والممتلكات. وأمام هذا التحدي المصيري، تصدرت النخب المحلية من الحضر والكراغلة المشهد لتحمل مسؤولياتها التاريخية.

خلال الإطار الزمني لدراستنا (1830-1835)، خاضت المدينة مواجهة شاملة تداخلت فيها الأبعاد العسكرية، السياسية، والاجتماعية؛ ولم تكتف بالدفاع عن استقلالها وصمد محاولات الإخضاع، بل تحولت إلى قاعدة انطلاق لعمليات المقاومة نحو الأطلس ومنتجة، وصولا إلى فرض حصار على العاصمة الجزائر.

وتكمن القيمة التحليلية لهذه الدراسة في إبراز مدى وعي النخبة المحلية وقدرتها على التكتل لحماية مدينتهم. إذ تميزت مواقفهم براجماتية سياسية عالية ومرونة في إدارة الأزمات، تجلت في استعانتهم بحاكم أجنبي لضمان الأمن والتفاوض مع المستعمر لتحقيق مكاسب ملموسة، وهو ما توثقه المراسلات الرسمية المحفوظة في الأرشيف التاريخي.

الكلمات المفتاحية: المدية، مقاومة، نخبة، كراغلة، أتراك.

Abstract:

This article examines the resistance of the inhabitants of Médéa to French occupation during the campaigns of 1830, 1831, 1836, and 1840. Following the fall of Bey Boumezrag in 1830, the city experienced a political vacuum and widespread instability threatening lives and property. In response, local elites -particularly urban notables and the Kouloughlis -assumed key responsibilities.

Between 1830 and 1835, Médéa resisted militarily, politically, and socially, while serving as a base for resistance toward the Atlas and the Mitidja.

The city opposed external control and defended its autonomy. The study highlights the cohesion, awareness, and pragmatism of the elite, who adapted to complex conditions, at times seeking support from foreign authority for security. Archival evidence also shows their engagement and correspondence with French authorities.

Keywords: Médéa; resistance; elite; Kouloughlis; Turks.

المؤلف المرسل: بهية بلحوت، الإيميل: bahybelh@gmail.com

1. مقدمة:

تعد مقاومة سكان مدينة المدية من أبكر جبهات الكفاح الجزائري ضد الاستعمار الفرنسي، إذ واجهت المدينة في وقت مبكر أولى الحملات العسكرية بقيادة الحاكم العام كلوزيل (Bertrand Clauzel) سنة 1830م، تلتها ثلاث حملات أخرى سنوات 1831م، 1835م، و1840م، وهي الأخيرة التي أدت إلى احتلال المدينة نهائيا بعد عقد من المقاومة الشرسة. وقد عاشت الحاضرة إبان تلك الفترة حالة حادة من عدم الاستقرار ناتجة عن الفراغ السياسي عقب قضاء فرنسا على سلطة الباي مصطفى بومزراق، مما جعل السكان يواجهون تهديدات مباشرة في أرواحهم وممتلكاتهم، دفعهم ذلك إلى تحمل مسؤولياتهم التاريخية واتخاذ قرارات حاسمة وجريئة لتسيير شؤون مدينتهم وتأمينها.

وفي هذا السياق، تبرز الخصوصية البنوية لمدينة المدية؛ إذ لم تكن مجرد عاصمة لبلايك التيطري فحسب، بل تميزت بوجود حاكم خاص معين من طرف دار السلطان بالجزائر يتمتع بصلاحيات واسعة ومستقلة عن الباي في إدارة شؤونها الداخلية، فضلا عن تركيبتها البشرية الفريدة التي شكلت فسيفساء مجتمعية تعايش عبر القرون رغما عن التباينات التي كانت تجمعها المصلحة تارة وتفرقها تارة أخرى، لا سيما بين الحضر والكراغلة، إلى جانب بقية العناصر كالأتراك، اليهود، بني ميزاب، البرانية، والعبيد.

تأسيسا على ذلك، يمكن تقسيم مقاومة سكان المدية إلى مرحلتين رئيسيتين: الأولى من 1830م إلى 1835م، وهي نطاق دراستنا الحالية، في حين تبدأ المرحلة الثانية من 1835م إلى 1840م، وتتميز بانضواء المدينة تحت لواء دولة الأمير عبد القادر حتى سقوطها النهائي.

ومن أجل تفكيك أبعاد المقاومة الشعبية بالمدية خلال الفترة ما بين 1830م و1835م، نسعى في هذا البحث إلى معالجة الإشكالية المحورية التالية: ما مدى مساهمة سكان مدينة المدية في المقاومة ضد الاحتلال الفرنسي في الفترة ما بين 1830 و1835؟

ولإجابة على هذه الإشكالية، يتفرع بحثنا إلى التساؤلين الآتئين:

ما هي أهم المقاومات التي ظهرت في مدينة المدية خلال هذه الفترة؟

ما هي أبرز مظاهرها؟

2. مقاومة الباي مصطفى بومزراق (1815-1830)

تعتبر أول مقاومة رسمية عسكرية منضمة حيث انخرط الباي مصطفى بومزراق بجيشه النظامي في المعركة ضد الحملة الفرنسية الغاشمة بسيدي فرج في جوان 1830. وفي هذا الصدد، يشير المؤرخ سيمون بفايفر (Simon Pfeiffer) في شهادته قائلا: "إن القيادة العامة للجيش كانت بيد مصطفى بومزراق، باي التيطري، وهو أشجع قواد الداى حسين. لقد حاول تجنب المواجهة مع الفرنسيين وتمكن من إلحاق خسائر بهم عن طريق مناوشتهم بدون انقطاع"¹.

عاد الباي مصطفى بومزراق إلى المدية وعقب توقيع معاهدة الاستسلام في 5 جويلية 1830 وسقوط العاصمة، قفل الباي بومزراق عائدا إلى حواضر المدية، حيث شرع فورا في محاولة تأسيس كيان سياسي وإقامة حكم مستقل داخل حدود بايلكه. وقد وصف المفكر حمدان خوجة هذه الخطوة الجريئة بقوله: "إنه وضع مشروعا جنونيا، فأعلن نفسه باشا"²، وأحدث تغييرات جذرية وموسعة في هيكل إدارته المحلية؛ إذ قام بتنظيم الديوان، وتعيين خزانجايا وآغا لضبط الأمور، بل ووصل به الأمر إلى سك العملة³ باسمه ولم يكتف بذلك، بل راسل أحمد باي في الشرق والباي حسن في الغرب، مطالبا إياهما بالانضمام والتحالف معه لتجسيد هذا المشروع الاستقلالي المتكامل⁴.

وفي 26 جويلية 1830م، شهدت منطقة تامنفوست عقد أول لقاء تاريخي لرموز المقاومة الجزائريين، وكان الباي بومزراق في طليعة هؤلاء القادة الحاضرين. وفي خطوة ذكية، عرض بومزراق على القائد الفرنسي دي بورمون زيارة مدينة البليدة في أولى خرجاته الاستكشافية، ليقع

هذا الأخير في كمين محكم نصب له بعناية هناك. وفي هذا السياق، أكد جوشرو دي سانت دوني (Juchereau de Saint Denis) ان تعداد مقاتلي القبائل في ذلك الهجوم شارف على الألفين، وكادوا أن يقضوا تماما على دي بورمون⁵ (de Bourmont) وهو الإخفاق الكبير الذي عجل بإنهاء مهامه وتعيين الحاكم العام كلوزيل (Bertrand Clauzel) خلفا له. وأمام هذا التحول الجديد، بادر كلوزيل بمراسلة الباي مصطفى بومزراق داعيا إياه للحضور الى العاصمة والتفاوض، غير أن الباي واجه تلك المساعي برفض قاطع ومطلق، حاسما بذلك أي اتصال أو علاقة مستقبلية مع المحتل الفرنسي⁶.

رد فعل الحاكم العام كلوزيل تمثل في قراره تأديب الباي مصطفى بومزراق⁷. فأصدر قرارا بخلعه وتعيين مصطفى بن حاج اعمر⁸ مكانه. حيث ذكر حمدان خوجة⁹ بأن كلوزيل اختار مصطفى بن حاج اعمر¹⁰ من القائمة التي قدمها له حضر الجزائر. قاد حملة عسكرية على المدية في 17 نوفمبر 1830 وتمكن من اختراق جبال الأطلس واكتشف الطريق المؤدي الى المدية عبر ثنية موزاية. اصطدم بمقاومة عنيفة من طرف الباي مصطفى بومزراق الذي التفت حوله قبائل التيطري وقبائل الأطلس¹¹.

جيش الاحتلال الفرنسي كان مكونا من 18000 جندي¹²، كان بقيادة الجنرال بوايير (Boyer). اللواء الأول (brigade) كان بقيادة الجنرال أشار (Achard)، والثاني بقيادة الجنرال مونك ديزر (Monck d'Uzer) إضافة على القوات الاحتياطية وفرقة قناصة إفريقية والزواف ومفرزي الدرك كما ورد في كتاب الحوليات الجزائرية (Les annales algériennes de Pellissier de Reynaud).

تحركت طلائع جيش الاحتلال الفرنسي في 19 نوفمبر 1830م متوجهة صوب المدية لإخضاعها؛ وخلال زحفها نحو المرتفعات الجبلية لسلسلة الأطلس، واجهت القوات الغازية هجمات عنيفة وضغوطا عسكرية مستمرة شنتها المقاومة الشعبية لعرقلة تقدمها. وفي خضم هذا التوتر الميداني، شهدت منطقة حوش موزاية حدث خيانة لم يكن في الحسبان؛ حيث تقدم أحد أعيان التصوف بالمنطقة، المرباط المدعو سيدي محمد بن فقير، مدفوعا بخمسة من شيوخ القبائل المجاورة ممثلين عن إقليم وطن السبت، ملتجئين الأمان من القيادة الفرنسية مقابل إبداء التعاون الميداني. لقد زودوا هيئة اركان الجيش الفرنسي بمعلومات مهمة حول الطريق¹³ المؤدي إلى المدية. تقدمت الحملة الفرنسية بحذر مصحوبة بمحمد بن فقير وأصحابه. ضراوة المعركة أسفرت عن تكبيد الصفوف الفرنسية خسائر بشرية معتبرة بلغت 220 قتيلًا. وكرد فعل عسكري حاسم لامتصاص الصدمة، زجت القيادة الاستعمارية بالفوجين 14 و 37 للمشاة بكامل طاقمها العسكري واللوجستيكي، مما اضطر مصطفى بومزراق وقواته إلى الانسحاب التكتيكي والتحصن بالمرتفعات.

بناء على هذه الإحداثيات، استأنف الجيش الفرنسي زحفه بحذر شديد، ليصطدم عند الممر الاستراتيجي ثنية موزاية بمقاومة شديدة¹⁴، مدعمة¹⁵ من قبائل الأطلس خاصة موزاية، سوماتة، بني مناصر، حجوط وبني صالح. لقد أسفرت ضراوة المعركة عن تكبيد الصفوف الفرنسية خسائر بشرية معتبرة بلغت 220 قتيلًا. وكرد فعل عسكري حاسم لامتصاص الصدمة، زجت القيادة الاستعمارية بالفوجين 14 و 37 للمشاة بكامل طاقمها العسكري واللوجستيكي، مما اضطر مصطفى بومزراق وقواته إلى الانسحاب التكتيكي والتحصن بالمرتفعات العليا؛ في حين تمكن دوكرو وإشارد من السيطرة على قمة موزاية وأعطيت لهما مهمة تأمين المواصلات ذهابا وإيابا خاصة سلامة الرجوع من المدية¹⁶.

في ثنية موزاية ألقى كلوزيل خطابه الشهير، غرس العلم الثلاثي وترك حامية فيها بقيادة مونك ديزر وانطلق نحو المدية¹⁷. تابع الفرنسيون زحفهم الحذر، وبمجرد اجتياز مرتفع جبل الدخلة، انفتحت الرؤية على مدينة المدية برونقها العمراني المتميز؛ وهو المشهد الجمالي الذي استوقف المؤرخ الفرنسي كامي روسي مشبها إياها بمدن الجنوب الفرنسي (MIDI).

وعقب احتلال المدية، اتخذ المارشال كلوزيل من دار الباي الكائنة بوسط المدينة مقرا رئيسا للقيادة العامة، في حين جرى توجيه فرقة الجنرال إشارد ووحدات "الزواف" للتمركز في موقع حوش الباي الاستراتيجي -الواقع حاليا في حي المصلى بمدينة المدية -وهو المعلم الذي أفاض

كامي روسي في تدوينه وتوثيقه بقوله: «لقد كان في قمة جماله وأناقته، غرفه جميلة، وبساتينه كثيرة...»¹⁸، مما يبرز بوضوح مستوى الرفاهية المعمارية الأنيقة التي حظيت بها عاصمة التيطري المدية في أواخر العهد العثماني.

3. مقاومة أحمد بومزراق

تولى أحمد بومزراق¹⁹ زمام المقاومة الشعبية في إقليم التيطري عقب عزل والده الباي مصطفى بومزراق من قبل السلطات الاستعمارية الفرنسية، متحركا في سياق شرعي وسياسي يسعى من خلاله إلى تنصيب نفسه بايا شرعيا للمنطقة لاستكمال مسيرة التأسيس السابقة. واستند أحمد بومزراق في مشروعه إلى جبهة تحالفات محلية وازنة؛ حيث حظي بدعم مطلق من فئتي الكراغلة والأتراك في المدية، اللذين شكلا كتلة -عسكرية اجتماعية لا يستهان بها في المدينة، فضلا عن امتداده القبلي الاستراتيجي المتمثل في أولاد مختار²⁰ الذين تربطهم به علاقات مصاهرة²¹.

في 26 نوفمبر 1830م، غادر الحاكم العام الفرنسي المارشال كلوزيل (Clauzel) مدينة المدية بعد أن ثبت فيها الباي المعين من قبل الإدارة الفرنسية مصطفى بن الحاج عمر، تاركا لحمايته مفرزة عسكرية فرنسية تحت قيادة الكولونيل ماريون (Marion)، مدعومة بمجموعة من الشاويش وفصيل من قوات الزواف.

غير أن هذه الترتيبات السياسية والأمنية جوبهت برفض قاطع ومقاومة شرسة من الساكنة المحلية، ولا سيما من قبل الحضر والكراغلة²² حيث عزلوا الباي المنصب ديبلوماسيا وميدانيا، وجعلوه بمثابة السجين داخل أسوار قصره. ولم يقتصر حراك المقاومة على العزل الإداري فحسب، بل نجح الأعيان في إحباط المخطط الفرنسي الرامي إلى تمكين الباي المعين من تشكيل وجمع قوات عسكرية من قبائل المخزن -المتتملة في قبيلتي الدواير والعبيد- وفق ما نصت عليه التوجيهات الصارمة لقيادة الجيش الفرنسي، مما أدى إلى شلل تام في جهاز الحكم الاستعماري.

في 27 نوفمبر 1830م تصعبا عسكريا حاسما في محيط مدينة المدية؛ إذ قاد أحمد بومزراق -بإسناد وتعبئة واسعة من تحالفات القبائل المحلية -هجومًا استراتيجيًا منسقًا استهدف موقع حوش الباي، الذي كانت تتمركز فيه قوة فرنسية مشتركة ضمت الفوج الثامن والعشرين للمشاة (28^e de ligne) ومفارز من قوات الزواف. ونجح بومزراق من خلال هذه المناورة الميدانية في قطع خطوط الإمداد والمواصلات المؤدية إلى مركز المدية، مع فرض حصار عسكري محكم على الباي المعين مصطفى حاج عمر²³ من قبل الفرنسيين.

وخلال اليومين التاليين للهجوم، اتسعت رقعة العمليات القتالية وزخمها إثر انضمام حشود من قبائل الإقليم، وفي مقدمتها: وزرة، هواره، ريغة، حسن بن علي، عبيد، الدواير، عريب، وبني سليمان. وأسفر هذا الإسناد القبلي الكثيف عن بسط أحمد بومزراق سيطرته الكاملة على موقع حوش الباي وتحويله إلى قاعدة عملياتية متقدمة لقواته، متحركا منه وإليه بكل حرية، مما شكل تحديا ميدانيا صارخا وإجهاضا عمليا لسلطة الباي الجديد مصطفى بن الحاج عمر.

أدركت القيادة الفرنسية خطورة الموقف؛ حيث سارع القائد الميداني ماريون (Marion) في 27 نوفمبر 1830م إلى مراسلة الحاكم العام الفرنسي المارشال كلوزيل (Clauzel) بطلب النجدة العاجلة، لا سيما بعد تبين حجم الخسائر البشرية الفادحة التي تكبدتها قواته والتي بلغت خلال يومين فقط 300 قتيل²⁴.

واستجابة لهذا الاستنجد، دفع الجيش الفرنسي بإمدادات عسكرية ضخمة تولى قيادتها العليا الجنرال بووير (Boyer)، وضمت فرقتين عسكريتين تحت إمرة الجنرالين آشارد (Achard) ومونك دوزير (Monck d'Uzer) على رأس تشكيلات من المشاة، إلى جانب كتيبة

من الزواف 26، ومفرزة قوامها 100 قناص، مدعومة بسلاح المدفعية؛ وهو ما رجح كفة الميزان العملياني وأجبر قوات المقاومة الشعبية على التراجع التكتيكي لامتناس الصدمة.

وعقب استعادة الإدارة الاستعمارية للمبادرة الميدانية، جرى تعزيز الحماية العسكرية الفرنسية في المدية بإضافة فرقتين جديدتين، بالتزامن مع صدور أوامر عسكرية صارمة لـ الكولونيل يوسف تقضي بالبدء الفوري في تجنيد وتسليح وحدات إضافية من "الزواف" من بين الساكنة المحلية لضمان ضبط أمن المنطقة وتأمين خطوطها الحيوية.

اضطر الحاكم العام الفرنسي المارشال كلوزيل (Clauzel) إلى سحب قواته العسكرية من مدينة المدية والارتداد الفوري نحو العاصمة الجزائر؛ وذلك نظرا للنقص الحاد في التعداد البشري واللوجستي للجيش الفرنسي وصعوبة تأمين خطوط الإمداد. وقد شكل هذا الانسحاب تحولا استراتيجيا لفائدة المقاومة الشعبية بقيادة الباي أحمد بومزراق، حيث انعكس إيجابا على التعبئة المحلية بالتفاف القبائل حوله وتعاضم قوته العسكرية، مما كرس مكانة المدية كمركز قيادي وعملياني متقدم لإدارة المقاومة في الوسط الجزائري.

في سياق هذه الديناميكية النضالية المشتركة، شهدت المنطقة حدثا تاريخيا مفصليا تجسد في عقد اجتماع تنسيقي موسع في منطقة خربة جندل بضواحي مليانة؛ حيث ضم هذا المحفل القيادي أقطاب المقاومة ممثلين في أحمد بومزراق²⁵، القائد بن زعموم²⁶ والشيخ سيدي سعدي²⁷. وتدعمت هذه الجبهة عسكريا بوصول إمدادات ومفارز قتالية أرسلها الحاج محمد بن عيسى البركاني من قبائل بني مناصر، وأخرى وجهها الشيخ محي الدين بن امبارك²⁸ من منطقة القليعة.

تحركت هذه القوات المنسقة بخطة استراتيجية نحو تطويق عاصمة البلاد؛ حيث تمركز الباي أحمد بومزراق بقواته في منطقة بوفاريك بسهل المتيجة، في حين استقر الحاج شريف السعدي والحسين بن زعموم في منطقة الحراش، مما أتاح فرض حصار عسكري خانق على العاصمة، وامتدت الهجمات الميدانية لتستهدف المزرعة النموذجية الفرنسية. وقد وصف المؤرخ والعسكري الفرنسي المعاصر للأحداث بيلسي دي رينو (Pélissier de Reynaud) حدة هذا الحصار وضراوته بقوله: "إن المعارك لم تتوقف ليلا ولا نهارا"، مؤكدا أن هذا الزخم الهجومي يعد غير مسبوق منذ سقوط العاصمة. انطلقت القوات نحو العاصمة، فاستقر أحمد بومزراق في بوفاريك وشريف سعدي وبن زعموم في الحراش وحوصرت العاصمة ووصلت الهجمات إلى المزرعة النموذجية²⁹ وهذا لم يحدث قط منذ الاحتلال. وأمام الخطورة المتزايدة للمقاومة المنطلقة من المدية، قرر الحاكم العام بيار بارتيزان³⁰ (Pierre Bertezene) قيادة حملة عسكرية مضادة استهدفت كسر هذا الطوق، والتركيز على تصفية مركز ثقل المقاومة المتمثل في شخص أحمد بومزراق، الذي اشتد عوده عسكريا عقب زحفه نحو العاصمة وبدعم مستمر من قبائل إقليم التيطري.

وتجدر الإشارة في هذا الإطار التاريخي إلى أن الفترة الانتقالية الحرجة الممتدة ما بين 1830م-1835م قد تميزت بتعاقب عدة حكام عامين فرنسيين على الجزائر.

اسم الحاكم العام	تاريخ التعيين	تاريخ انتهاء المهام
الجنرال كلوزيل	12 أوت 1830	21 فيفري 1831
الجنرال بارتيزين	21 فيفري 1831	7 جانفي 1832
الجنرال روفيقو	7 جانفي 1832	29 أفريل 1833
الجنرال فوارول	29 أفريل 1833	27 جويلية 1834
الجنرال ديرلون	27 جويلية 1834	8 جويلية 1835

جدول الحكام العامين 1830-1835³¹

عين بيار بارتيزان³² (Pierre Berthezène) كحاكم عام جديد على الجزائر. مباشرة بعد تنصيبه قرر التصدي للمقاومة، فقام بإعداد حملة عسكرية بقيادته توجهت الى مدينة المدية. لقد كان الجيش الفرنسي مكونا من لواء³³ (Division) مشكلا من فيلقين³⁴ (brigade). الأول بقيادة المارشال بوشي (Buchet) فيه كتيبتين³⁵ (Bataillon)، كتيبة نخبة بها عشر سرايا³⁶ (Compagnie)، كتيبة مزدوجة بقيادة دي فيفيي (Duvivier) بها أربع سرايا، 200 من الزواف وسريتان (Escadron) من قناصي إفريقيا ومدفعية إضافة إلى قوات الهندسة العسكرية، المتفجرات، المؤونة والذخيرة. المجموع 4500 رجل³⁷. تشكيلة الجيش المعمول بها في النظام العسكري موضحة في الجدول الآتي:



تشكيلة الجيش³⁸

في سياق المحاولات الفرنسية المتكررة لكسر طوق المقاومة وإخضاع المدية، انطلقت الحملة العسكرية بقيادة الحاكم العام الجنرال بيار بيرتيزين (Pierre Berthezène) في 23 جوان 1831م، مستندة إلى حشد عسكري ضخم قدر قوامه بنحو 4500 جندي من مختلف التشكيلات المقاتلة. وخلال تقدمها الميداني، بلغت القوات الفرنسية موقع حوش موزاية في 26 جوان، وهو الموقع الذي وجدته الإدارة الاستعمارية مخربا بالكامل إثر عمليات الهدم والتعطيل الاستباقية التي نفذتها القبائل³⁹ المحلية لعرقلة تقدم الحملة وتجريدها من نقاط الارتكاز اللوجستي. وصلت الحملة إلى ثنية موزاية في 28 جوان، انتقلت إلى زبوج عزارا أين كان المبيت. في 29 جوان 1831م وصل بارتيزان إلى المدية أين كان في استقباله الباي مصطفى بن حاج اعمر.

واصلت الحملة زحفها نحو المرتفعات لتصل إلى الممر الاستراتيجي لثنية موزاية في 28 جوان، لينتقل الجيش الفرنسي بعدها مباشرة إلى منطقة زبوج عزارة التي اتخذت كمحطة للمبيت وتأمين القوات وإعادة ترتيب الصفوف. وفي 29 جوان 1831م، نجح الجنرال بيرتيزان في اختراق التحصينات والوصول بجيشه إلى مركز مدينة المديّة؛ حيث كان في استقباله هناك الباي المعين من قبل السلطات الفرنسية مصطفى بن الحاج عمر، في محاولة من الإدارة الاستعمارية لإعادة تثبيت سلطته التنفيذية المنهارة وإرساء واجهة حوكمة موالية لها في المنطقة.

في الغد، بدأت قوات بارتيزان التحرك باتجاه حوش الباي الذي استرجعته من أحمد بومزراق. في واحد جويلية أعطيت الأوامر للفرقة 28 بالبقاء في المدينة لحراستها بينما انطلقت فرقتي دي فيفيي، والجنرال بوشي (Bouchet) وهما فرقتي النخبة وقناصي إفريقيا نحو قبيلة هواره. أعطيت الأوامر لحرق المحاصيل، تحطيم المنتجات وقطع الأشجار. لقد تفاجأ الجيش الفرنسي بالقبائل المنظمة التي كانت تنتظره. "في الأفق كانت مجموعات من البرانس البيضاء تتفرج على المشهد الرهيب" يقول كامي روسي (Camille Rousset). الطريق كان وعرا والخطر بدأ يتزايد على الجيش الفرنسي الذي لم يكن يتوقع العدد والعدة لفرق المقاومة التي كانت تترصد بهم.

اتخذ بارتيزان قرار العودة بسرعة نحو المديّة قبل فوات الأوان⁴⁰. في الغد أي في 2 جويلية 1831م، أحس بارتيزان بازدياد الخطر فقرر إخلاء المديّة والعودة إلى العاصمة واصطحب معه الباي حاج اعمر. العودة كانت صعبة جدا بسبب هجمات القبائل⁴¹ التي قدرت أعدادها حسب بيليسي دي⁴² رينو بين 1200 إلى 1500 مقاتل. وصلت أخبار للجيش الفرنسي مفادها أن القبائل ستهاجمها في منتصف الليل، فأعطيت الأوامر بإشعال النيران من أجل التموه والانطلاق ليلا نحو ثنية موزاية التي وصلها الجيش منهكا وبمعدنويات منشطة فجرا. القتال كان صعبا في ثنية موزاية. برزت فيه فرقتي دي لامورسيار⁴³ ودي فيفيي. جرح قائد الكتبة عشرون وانتشرت الفوضى. واصل الجيش طريقه باتجاه حوش موزاية أين وجد قبائل حجوط، بني خليل، وخشنة بفرسانها في انتظاره فألقته خطته المستعجلة أي تغيير الطريق باتجاه شفة، فالوصول إلى العاصمة بمعدنويات منشطة خاصة وأن صيت انحرابه وانسحابه من المديّة قد انتشر⁴⁴. انخرام بارتيزان في المديّة ومتابعته من طرف القبائل رفع معدنويات المقاومين.

في إطار الاستراتيجية الدفاعية التي تبنتها قوى المقاومة الشعبية في المتيجة والبلدية، قررت القيادة المشتركة بزعماء أحمد بومزراق، بن زعموم، والحاج السعدي، شن عمليات هجومية منسقة تهدف إلى طرد المستوطنين والحد من التوسع الاستعماري في محيط العاصمة. وتجسيدا لهذا التوجه الميداني، شهد يوم 10 جويلية تنفيذ عملية نوعية أسفرت عن تصفية النقيب غوليي (Gaulhier) التابع ل سلاح الهندسة العسكرية الفرنسي بالقرب من منطقة الحراش الاستراتيجية. بين 11 و 13 جويلية 1831م أعلن هجوم كاسح على المعمرين فانتشر الذعر والفوضى. وفي سياق قطع خطوط إمداد العدو، نجحت قوات أحمد بومزراق بتاريخ 18 جويلية 1831 في اعتراض كمين محكم لفرقة المدفعية الفرنسية أثناء عودتها من منطقة بئر خادم⁴⁵، لتشن في اليوم الموالي هجوما مباشرا استهدف المزرعة التجريبية والفرقة العسكرية المحمية التابعة للفيلق 76. وميدانيا، توزعت القوات الجزائرية بانتشار تكتيكي دقيق؛ حيث رابطت قوات بن زعموم على الجبهة اليمنى لمنطقة الحراش ب 3000 مقاتل وفي اليوم الموالي هاجمت المزرعة التجريبية، والفرقة المحمية من الفيلق 76. قوات بن زعموم رابطت يمين الحراش ب 3000 مقاتل⁴⁶ يمثلون تحالفا قبليا واسعا يضم تحت إمرته 40 قبيلة، بينما تمركزت في الجبهة اليسرى المقابلة لها قوات أحمد بومزراق لإطباق الحصار. وأمام هذا الضغط العسكري، دفع الحاكم العسكري الفرنسي بالجنرال بارتيزان على رأس قوة ضاربة مكونة من أربعة فيالق عسكرية، لاحقت المجموعات المقاومة في مناطق بئر توتة وبوفاريك، مستعينة بقوات "الزواف" النخبوية التي وضعت في مقدمة الطليعة الهجومية. ورغم شراسة المقاومة، فإن غياب التنسيق اللوجستي المستدام أدى إلى حدوث اختلالات تنظيمية، أفضت في نهاية المطاف إلى انسحاب تكتيكي للمقاومين والتحصن بالمرتفعات الجبلية⁴⁷.

لقد مرت العاصمة بأصعب فتراتها منذ 1830م نتيجة الهجمات المتتالية والخسائر البشرية والمادية خاصة في المزرعة النموذجية. ان المقاومة تمكنت من الفوز بعناد حربي معتبر. القيادة كانت لابن زعموم وأحمد بومزراق. لو حدث وأن اتحدت قوات المقاومين لكان لمصير المقاومة شأن آخر كما قال كامبي روسي⁴⁸. لقد ولدت المقاومة في المدية وامتدت إلى الأطلس كما ذكر سعد الله⁴⁹. كنتيجة لذلك تحول الجيش الفرنسي إلى قوة دفاعية⁵⁰. كان عليه أن يسترجع قواه ومعنوياته المنحطة⁵¹.

4. مقاومة الحضر والكراغلة

شكل حضر المدية طبقة اجتماعية متميزة؛ إذ أرجع المؤرخ لوجي دي تاسي (Laugier de Tassy) أصولهم الاثنية إلى الفاتحين الأندلسيين والمهاجرين الوافدين عقب سقوط غرناطة 1492م. ويعد المستشرق دوماس⁵² (Eugène Daumas) أول من أسقط سوسولوجيا مصطلح الحضر (Hadars) على فئة المور (Les maures) معرفا إياهم كشرائح متباينة بنويوا عن الأتراك والبدو، ومتميزة بنمطها المعيشي، وتقاليدها، وأزيائها المدنية العريقة، ومميزين بتقاليدهم، ولباسهم. احترفوا التجارة والحرف. تبوؤوا وظائف إدارية ودينية وقضائية كخزان للنخب الفقهية والعلمية ومنهم علماء كثيرون.

أما الكراغلة فمثلوا الشريحة السوسولوجية الناتجة عن مصاهرة النخبة العسكرية التركية للمواطنين الجزائريات، وقد تركز ثقلهم الديموغرافي والاجتماعي بصفة حصرية داخل الحواضر التي احتضنت الثكنات والحاميات الإنكشارية كمدنية المدية⁵³. وبموجب هذا التموقع المتميز، حظيت هذه الفئة برعاية السلطة المركزية، وقد أهلته تلك المكانة المرموقة لتبوؤ وظائف، وتقلد مناصب قيادية في السلكين الإداري والعسكري. وتحول الكراغلة بفعل ذلك إلى ركيزة بنوية أساسية وقوة أسهمت بفعالية في إدارة شؤون بايلك المدية وضبط توازناته.

لقد اختلفت رؤية وموقف المؤرخين من هاتين الطبقتين المهمتين بسبب مواقفهما من الاستعمار، من أحمد باي ومن الأمير كما سنرى لاحقا. إلا أنه ليس من العدل إبعاد هاتين الطبقتين والتكر لدورها من أجل سد الفراغ وتنظيم المدية والدفاع عنها. دورها تميز بالتطور والتغير حسب الظروف. لقد كان باي التيطري مسيطرا على تجارة الحبوب، الصوف، الزيت والملح وبعد سقوطه تحرر الحضر من القيود التي كانت مفروضة من طرفه وأصبحوا مسيطرين على سوق المدية ومتحكمين في القبائل التي كانت تشتري منهم السلع القادمة من العاصمة أو المشتراة من الأوروبيين⁵⁴. لقد استفاد حضر المدية من مبادلاتهم مع الفرنسيين خاصة وأن أعداد الجيش قد تزايدت ومعها الاحتياجات، منها الأحصنة، الأغنام، الأبقار، الصوف. الأوضاع الجديدة فرضت طبقة بورجوازية من الحضر تكتلت في مجلس أصبحت له كلمته في إدارة المدينة إلى جانب الكراغلة.

شهدت المواقف السياسية لفتي الحضر والكراغلة في مدينة المدية تحولات محورية فرضتها سياقات المرحلة الانتقالية؛ إذ شكلت استراتيجياتهم المتبعة نمطا متميزا من المقاومة التي تراوحت أدواتها بين العمل الدبلوماسي السلمي والعمل العسكري المسلح، بهدف إثبات الذات السياسية والحفاظ على الاستقلالية الإقليمية في مواجهة المشاريع الخارجية التنافسة. وعلى الرغم من تبنيتهم لسلوك براغماتي انفتحوا من خلاله على التعامل الاقتصادي والتجاري مع الفرنسيين لضمان استمرار الدورة الحيوية للمدينة وتحقيق عوائد مالية، إلا أن هذا الاندماج المصلحي المؤقت لم يثنهم عن اتخاذ مواقف راديكالية رافضة لأي تدخل فرنسي مباشر في الشؤون الداخلية للمدينة.

وتجلت هذه النزعة السيادية في معارضتهم المطلقة للقيادات المحلية المعينة من قبل الإدارة الاستعمارية؛ حيث رفض الأعيان سلطة الباي مصطفى بن الحاج عمر (المنتمي لفئة الحضر)، ومحمد بن الحسين⁵⁵ الكرغلي. (الحسوب على فئة الكراغلة) بالرفض ذاته، مما يؤكد أن الولاء للمشروع الوطني المستقل كان يتجاوز الانتماءات الفئوية الضيقة. لقد تبلورت لدى النخب الحضرية رؤية استراتيجية واضحة تتمثل في الإبقاء على المدية ككيان سياسي مستقل يتمتع بالحكم الذاتي، على أن يتولى تسيير شؤونها حكام يختارون عبر آلية الشورى والانتخاب وبإرادة شعبية محضة من داخل البيئة المدنية.

ولتجسيد هذا الطرح على أرض الواقع، تجاوز الحضر والكراغلة خلافتهم التقليدية وعقدوا تحالفا سياسيا تاريخيا أسفر عن إرساء سلطة محلية مستقلة، تكللت بتعيين محمد بوساريب كأول حاكم منتخب لمدينة المديّة في أواخر عام 1831م. وفي خطوة دبلوماسية ذكية لتثبيت هذا الواقع السياسي الجديد، راسلت النخب القيادية و على رأسها الحضر الإدارة الفرنسية لانتزاع اعتراف رسمي من الإدارة الفرنسية غير أن الحاكم العام الفرنسي الدوق دي روفيقو (Le Duc de Rovigo) جابه هذا الإجراء برفض قاطع، حاسما الموقف بأطروحة استعمارية مركزية تؤكد أن صلاحيات تعيين الحكام والولاية تندرج ضمن الحقوق السيادية الحصرية للسلطات الفرنسية⁵⁶. مما مهد لمرحلة جديدة من الصدام والمد والجزر بين الطرفين.

على الرغم من النجاح الأولي الذي حققه حاكم المديّة، المعروف في المصادر التاريخية بالشيخ محمد⁵⁷ في تسيير المديّة، إلا أنه أزيح من طرف الحضر المتحالفين مع عدة قبائل عندما اكتشفوا رسالة سرية بعث بها إلى إبراهيم باي عنابة في 13 جانفي 1832م، ممضية من طرف شخصيات نافذة⁵⁸ تطلب من باي عنابة إبراهيم القدوم إلى المديّة وضمها إليه⁵⁹، وهو أمر كان يرفضه الحضر الحريصين على استقلال مدينتهم عكس الكراغلة المؤيدين لفكرة التبعية للعنصر التركي أو الكرغلي.

أثار هذا الإجراء السري حفيظة نخب الحضر الذين كانوا ينظرون إلى أي تدخل خارجي كتهديد مباشر لمشروعهم الاستراتيجي؛ حيث تميزت عقيدتهم السياسية بالحرص الشديد على صون الاستقلالية الذاتية لمدينة المديّة وتكريس سيادتها الإقليمية بعيدا عن أي وصاية خارجية. وفي المقابل، عكس هذا التحرك السري النزاع السوسولوجي والسياسي لفئة الكراغلة، الذين ظلوا يؤيدون فكرة التبعية العضوية والسياسية للعنصر التركي أو الكرغلي، باعتباره الامتداد الشرعي لنظام الإيالة العثمانية القديم، مما عمق الاستقطاب الداخلي وعجل بإعادة ترتيب بيت الحكم في المديّة.

تزامن مع هذه التطورات، تواترت الأنباء عن التماس سكان مدينة تلمسان حماية السلطان المغربي مولاي عبد الرحمن. في هذه الأثناء وصلت أخبار طلب سكان تلمسان الحماية من السلطان المغربي الذي وصل ممثله بلحمري واستقر في تلمسان. راسلت شخصيات نافذة من المديّة بلحمري من أجل التدخل وحمايتهم، كما راسل الحضر السلطان المغربي⁶⁰. إن الحاج قارة في تقريره الذي سجله آدريان بيربروغر (Adrian Berbrugger) في المجلة الإفريقية أكد بأن السيد بن رامل وبوشارب وهما من أعيان حضر المديّة انتقلا إلى فاس وأحضرا ممثل السلطان المدعو الشريف معطي بن آل سارقي⁶¹ المرابط الذي وصل إلى المديّة وحف باستقبال حار من طرف السكان كما ورد عند سعد الله⁶². رفضت فرنسا التدخل المغربي في الجزائر واستعملت كل الوسائل لطرد الشريف معطي. تزامن وجود ممثل السلطان مع مذبحّة العوفية من طرف دي روفيقو (Duc De Rovigo). الشريف معطي دافع عن السكان وطالب بالجهاد، كما راسل الدوق روفيقو. لقد دافع حضر المديّة على الشريف معطي واتضح ذلك من خلال الرسالة شديدة اللهجة التي بعثوها إلى الدوق في 24 أفريل 1832. بقي الشريف معطي أكثر من سنة ثم رحل تاركا الحضر والكراغلة⁶³ ومعهم قبائلهم المتناحرة خاصة بسبب طلب انضمام الكراغلة إلى باي قسنطينة. تعقدت الأمور أكثر بعد انضمام أحمد بومزراق إلى جيش أحمد باي الذي أصبح يلقبه بباي التيطري⁶⁴.

بعد رحيل ممثل السلطان تحالف الكراغلة مع بعض القبائل خاصة قبيلة بني حسن وفرضوا حاكما هو الحاج محمد هوقا⁶⁵ المؤيد للانضمام إلى باي قسنطينة الأمر الذي أدى إلى انقسام في الساحة السياسية بين الحضر والقبائل المتحالفة معهم والرافضة لعودة الأتراك من جديد والكراغلة المطالبين بالانضمام إلى أحمد باي. لقد عاشت مدينة المديّة أوضاعا صعبة وغير مستقرة من 1830م إلى 1833م. فقد تعاقب على حكمها كل من محمد بوساريب، الشيخ معطي بن آل السرقى المغربي ثم الحاج محمد هوقا الكرغلي⁶⁶.

في سياق المقاومة العسكرية، يشار إلى توحيد موقفه الحضر والkraïة بعد مجزرة العوفية في 5 أبريل 1832م. فبعثوا برسالة إلى الدوق روفيقو⁶⁷ في 14 ماي 1832م، عبروا فيها عن رفضهم للسياسة الظالمة، واعتبروا مجزرة العوفية قطيعة بينهم وبين السلطات الفرنسية⁶⁸.

دخلت مدينة المدية وإقليم التيطري بعد عام 1832م مرحلة من الغليان الشعبي والتعبئة الثورية المكثفة؛ إذ تحولت المدينة إلى قطب مهم استقبل العديد من الوفود والقبائل الوافدة من مناطق الأطلس الجبلية وسهل المتيجة. وفي هذا السياق، غدت المساجد والمراكز الدينية حواضن ومقرات للاجتماعات السياسية والعسكرية المغلقة، مستثمرة الأجواء الروحية والرمزية لذكرى المولد النبوي الشريف⁶⁹ لشحذ الهمم وتوحيد الصفوف. وفي هذا الإطار التقيمي، يقر المؤرخ أبو القاسم سعد الله بأسبقية هذا الحراك، مؤكداً أن شرارة المقاومة المنظمة في هذه المنطقة قد انطلقت وتطورت من مركز مدينة المدية أولاً، قبل أن تمتد خطوطها الميدانية إلى المرتفعات الجبلية للأطلس⁷⁰.

جسد هذا التحالف ميدانياً في جوان 1832م، حينما شنت قبائل بني سليمان، التيطري، بن سليم، بني بو يعقوب هجوماً عسكرياً منسقاً واسع النطاق استهدف خطوط الدفاع الفرنسية المحيطة بمدينة الجزائر، ونجحت في اختراقها وصولاً إلى مشارف وادي الحراش. وتزامناً مع هذا الزخم الميداني، حققت المقاومة اختراقاً سوسولوجياً هاماً في الجبهة الداخلية للمدينة بتوفيق الشيخ سيدي السعدي في استمالة فئة الكراغة وإقناعهم بالانخراط في لواء المقاومة⁷¹، وهو ما عد في حينها كسباً استراتيجياً نوعياً بالنظر إلى وزهم العسكري. وبإيعاز وتوجيه مباشر من سيدي السعدي، قام الحاج محمد هوقا -باعتباره شخصية نافذة وذات مكانة في أوساط الكراغة- بمراسلة الحاج أحمد باي قسنطينة، داعياً إياه لدعم التحرك العسكري بالمنطقة والاندماج في ديناميكية المقاومة.

بالرغم من هذا المناخ الحماسي الكبير الذي رافق انضمام الكراغة -الذين قدرت أعدادهم ما بين 200 و400 مقاتل- إلا أن الحركة كانت لها ثغرات تنظيمية حادة؛ حيث افتقرت إلى التخطيط الاستراتيجي الصارم والتحضير الجدي للمعادل لموازين القوى، مما سمح لجيش الاحتلال الفرنسي باحتواء الهجوم وتثبيت سيطرته الميدانية وإعادة ضبط الوضع لصالحه.

وقد أفرزت تداعيات هذه الانتكاسة العسكرية انقساماً جوهرياً متجدداً في الرؤى السياسية للنخب المحلية حول طبيعة التحالفات الخارجية؛ فبينما رأت فئة الكراغة ضرورة الاستنجاد بسلطة باي قسنطينة وإعادة ربط المنطقة بالسيادة العثمانية التقليدية كطوق نجاة، عارضت فئة الحضر هذا التوجه بشكل قاطع، مفضلة الحفاظ على استقلالية القرار المحلي وبناء توازنات وطنية جديدة بعيداً عن الوصاية العثمانية التقليدية.

بالنسبة للموقف من الأمير عبد القادر، ففي 1834م شهد الموقف العام في مدينة المدية تبايناً سوسولوجياً وسياسياً حاداً بين فئتي الحضر والkraïة في التعاطي مع مشروع دولة الأمير عبد القادر. ففي أعقاب توقيع الأمير لمعاهدة ديمشال (Desmichels) تشكل وفد رفيع المستوى من أعيان المدية وخاصة الحضر وتوجه نحو عاصمة الإمارة بمعسكر للقاء الأمير؛ حيث سلموه رسالة رسمية استعرضوا فيها حجم المعاناة والاستنزاف الذي طال المنطقة جراء حالة الانفلات الأمني، معربين عن حاجتهم الملحة لحمايته وسلطته السيادية، كما أحاطوه علماً بالخطوة البراغمية الاضطرارية التي أقدموا عليها مسبقاً والمتمثلة في مراسلة الحاكم العام الفرنسي لطلب الدعم، وهي المراسلة التي بقيت دون رد رسمي⁷².

في مارس وأفريل 1834 عاد المحور الشرقي ليضغط على التيطري وخاصة مدينة المدية؛ فخلال الفترة الممتدة بين مارس وأفريل 1834م، تحرك الحاج أحمد باي قسنطينة عسكرياً نحو المدية عبر حملة قادها ابن الباي السابق أحمد بومزراق. وهنا انقسم المجتمع المدني مجدداً؛ حيث سارع الكراغة إلى الترحيب بحملة أحمد باي بدافع الولاء للنظام العثماني القديم، في حين تصدى الحضر مدعومين بكتلة وازنة من القبائل المحلية لهذا التدخل، مما أجبر قوات قسنطينة على التراجع والانسحاب دون تحقيق أهدافها⁷³.

أفرز هذا التدافع الإقليمي الحاسم قناعة راسخة لدى الحضر والقبائل الكبرى في التيطري بضرورة الانضواء تحت لواء سلطة وطنية موحدة؛ حيث قاد الحضر حراكا نجح في استقطاب كبرى القوى القبلية بالمنطقة وفي مقدمتها قبيلتنا العداورة و أولاد المختار - اللتان تصنفان ضمن أقوى وأشرس التحالفات القبلية في الإقليم - حيث أعلنوا جماعيا رغبتهم في الانضمام الرسمي والكامل لمشروع الأمير عبد القادر، مما رجع كفة دولة الخلافة الناشئة في إقليم التيطري⁷⁴.

شهدت منطقة المديّة في مطلع عام 1834م تحولا بارزا في خارطة الصراع المحلي والمقاومة بظهور الشيخ موسى الدرقاوي كفاعل ديني وعسكري أثار حراكا واسعا؛ وحسب المعطيات التاريخية الموثقة في تقرير المفتي الشيخ قارة⁷⁵ فإن محطة موسى الدرقاوي⁷⁶ الأولى كانت مدينة البليدة، حيث عقد بها لقاءات تشاورية مع أعيان المنطقة وشخصياتها النافذة، وفي مقدمتهم محمد بن عيسى البركاني. وعقب حشده للمريدين والقبائل تحت لواء الجهاد، توجه نحو مدينة المديّة على رأس قوة عسكرية قدرت بنحو 2000 مقاتل، حاملا أطروحات راديكالية تجلّت في مطالبته الفورية لأعيان المدينة بتسليمه الجاليتين اليهودية والميزابية المقيمتين هناك، وهو الأمر الذي جوبه برفض قاطع من قبل الساكنة المحلية التزاما بأعراف الحماية والتعايش السائدة.

وأمام هذا التهديد العسكري، سعت النخب العلمية والدينية بالمديّة إلى تفعيل القنوات الديبلوماسية والشرعية لاحتواء الأزمة؛ حيث تشكل وفد علمائي رفيع ضم 11 عالما بقيادة المفتي الحاج قارة، بهدف محاورة الدرقاوي وإقناعه بالعدول عن اقتحام المدينة وإبعاد جيشه عن أسوارها. غير أن قنوات التفاوض سرعان ما انهارت، مما أدى إلى وقوع اصطدام مسلح أول في منطقة بساتين المدينة، أسفر عن سقوط 6 قتلى في صفوف جند الدرقاوي و 7 قتلى من مدافعي المديّة.

لم يدم مكث الدرقاوي بالمديّة طويلا، إذ تقاطعت حركته مع تحول استراتيجي عميق في الساحة الوطنية؛ فبمجرد وصول أنباء توقيع الأمير عبد القادر ل معاهدة دي ميشال (Desmichels) مع الفرنسيين، اعتبرها الدرقاوي مساومة سياسية، فقرر توجيه نضاله العسكري ضد الأمير متخذاً من منطقة عمورة قرب وامري قاعدة خلفية لمحاربته⁷⁷. وفي أبريل 1834م، اصطدم الجيشان في معركة حاسمة تمكن فيها الأمير عبد القادر من حسم الموقف عسكريا وتشنيت قوات الدرقاوي، الذي اضطر للفرار نحو منطقة مسعد متخليا عن أسرته وفلول جنوده. وفي أبريل 1834م، اصطدم الجيشان و تمكن الأمير عبد القادر من حسم الموقف عسكريا وتشنيت قوات الدرقاوي، الذي اضطر للفرار نحو منطقة مسعد متخليا عن أسرته وفلول جنوده⁷⁸.

عكست هذه الحادثة انقساماً سوسيلوجيا حادا داخل البنية الاجتماعية للمديّة؛ إذ أظهرت فئة الكراغلة تأييدا صريحا و مندفعاً لحركة موسى الدرقاوي، بل إن انهزامه دفعهم إلى ربط قنوات اتصال مباشرة مع السلطات الاستعمارية الفرنسية عبر مراسلات يطلبون فيها الانضواء تحت لوائها. وفي المقابل، تمسكت فئة الحضر المؤيدة ببعض قبائل التيطري بموقفها السيادي المستقل، رافضة تسليم المدينة له⁷⁹ أو التنازل عن دورها السيادي، مما يبرز عمق الوعي والبراغماتية لدى النخب ومنها الحضر المؤيدين من طرف بعض قبائل التيطري في إدارة أزمات تلك المرحلة الانتقالية.

5. خاتمة

بناء على ما تناولناه في دراستنا نستنتج بوضوح ذلك الدور المحوري الذي اضطلعت به النخب المحلية في مدينة المدية إبان فترة التحولات التي تلت الاحتلال الفرنسي عام 1830م. برزت ضمن هذه النخب فئة الحضر التي تفاعلت مع القبائل المحيطة بالمدينة كفاعل اجتماعي - سياسي تصدر المشهد العام، وأخذ على عاتقه توجيه مسار المقاومة الشعبية صونا للهوية وتعبيرا عن الوعي الاجتماعي و السياسي للمنطقة.

ولم يقتصر دور هذه النخب المكونة للمجتمع المدني على الجانب الدفاعي فحسب، بل امتد ليشمل إدارة الأزمة وتأمين الاستقرار الاجتماعي والسياسي للمجتمع المحلي؛ إذ نجحت هذه القيادات في سد الفراغ المؤسساتي العميق الذي أعقب انهيار السلطة العثمانية المركزية في العاصمة وعزل الباي بومزراق. وتجلى هذا النضج السياسي في المبادرة بتأسيس مجلس شوري لإدارة المدينة، كآلية محلية استثنائية نجحت الى حد ما في تجنب المنطقة منزلقات الفوضى والانفلات الأمني.

لقد اتسم السلوك السياسي للنخب المدنية ببراعماتية واعية وحنكة دبلوماسية رفيعة في التعاطي مع تعقيدات المشهد الإقليمي والمحلي وتداخل قواه المتصارعة. فقد ناورت هذه النخب بذلك بين مطامع الإدارة الاستعمارية الفرنسية، وطموحات الحاج أحمد باي في قسنطينة، وتحركات الشيخ موسى الدرقاوي، وصولا إلى صياغة تفاهات تفاوضية مع الأمير عبد القادر. ويؤكد هذا الحراك الدبلوماسي الموثق في المراسلات الرسمية المحفوظة بالأرشيف العسكري الفرنسي ب فانسان (Vincennes) على امتلاك أعيان المدية لخطاب سياسي ناضج وقنوات اتصال مع القادة الفرنسيين أهلته ليكونوا رقما مهما في معادلة تلك الحقبة الانتقالية.

وعليه نتقدم بالتوصيات التالية:

بناء على النتائج التي توصلت إليها هذه الدراسة، وفي سبيل إثراء البحث التاريخي، نتقدم بمجموعة من التوصيات والمقترحات للباحثين والمختصين:

- ✓ **تكثيف الدراسات المونوغرافية:** في إطار التاريخ المحلي، نوصي بتركيز الجهود البحثية على المقاربات المونوغرافية المتخصصة لدراسة البنية الاجتماعية والسياسية لمنطقة المدية والتيطري عموما، لا سيما خلال الفترة الاستثنائية والحرية الممتدة بين (1830 - 1835م).
- ✓ **إعادة الاعتبار للرموز المحلية:** الحث على نبش الذاكرة التاريخية للمدينة بهدف استرجاع وإعادة الاعتبار للشخصيات والأعيان والرموز المحلية المشكلة للمجتمع المدني، الذين أسقطتهم أدوات التدوين التاريخي الرسمي، بالرغم من بصماتهم في قيادة المجتمع.
- ✓ **استنطاق الأرشيف الفرنسي:** ضرورة التوجه نحو الاستغلال الأمثل للمادة الخام المتوفرة في الأرشيف الفرنسي، وإخضاع الرسائل المتبادلة بين أعيان المدية والقوى المعاصرة لها المتمثلة خاصة في القادة الفرنسيين للتحليل التاريخي النقدي، للكشف عن المرجعيات المعرفية العميقة للخطاب السياسي الجزائري في مطلع القرن التاسع عشر.

6. الهوامش:

- ¹ - مذكرات سيمون بفايفر، أو لحة تاريخية عن الجزائر، تق وتغ أبو العيد دودو، الجزائر، 1974، ص 101
- ² - بفايفر، المصدر السابق، ص. 103.
- ³ - للتوسع أكثر، انظر.. حمدان خوجة، حمدان بن عثمان خوجة: المرأة، لمحة تاريخية واحصائية على اية الجزائر، تر وفه محمد بن عبد الكريم، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، 1972، ص 103.
- ⁴ - نفسه، ص. 104.
- ⁵ - Ammar Hakima Mouhoub, **les premières résistances Médéa et Titteri au lendemain de 1830**, Mémoire pour un diplôme d'études supérieures, Université d'Alger, 1971, p. 29.
- ⁶ - "سأرد عليكم وأكد لكم بأنني لن أتي للقائكم لأنني لا أثق فيكم. لقد أقسمتم بأنكم ستحترمون الأرواح والممتلكات وعندما أصبحت حاكما على الجزائر قضيتكم على كل شيء. أي ثقة بقيت بيننا؟" - ,
- Charles André Julien, **histoire de l'Algérie contemporaine**, Paris, 1964, p. 67.
- ⁷ - سعد الله أبو القاسم، الحركة الوطنية الجزائرية، دار الغرب الإسلامي، 1992، ص ص 49 - 50.
- ⁸ - نفسه، ص ص 50 - 51.
- ⁹ - حمدان بن عثمان خوجة: من مواليد سنة 1775 م، بمدينة الجزائر، من أب عثماني وأم جزائرية، كرغلي، تلقى علوم الدين واللغة على يد والده، وخاله وباقة من أساتذة عصره، له العديد من الرحلات باعتباره رجل علم ودين، شغل عدة مناصب مهمة، منها مستشار الأول للداي حسين، وقد لازم هذا الأخير إلى غاية الاحتلال الفرنسي للجزائر، الذي شارك في المقاومة السياسية له، إلى غاية وفاته سنة 1840 أو 1841 م ترك مؤلفاته منها كتابه الضخم، والمهم في تاريخ الجزائر المعاصر " المرأة، للمزيد أنظر.. خليفة بليدي، بليدي خليفة، التيطري في العهد الاستعماري 1830-1870، دراسة مونغرافية. أطروحة لنيل دكتوراه، جامعة الجزائر، 2016-2017، ص. 59.
- ¹⁰ - سعد الله يقول إن الحاج مصطفى بن اعمر كان من التجار الأثرياء وليس من الحكام، في باريس أعطي له وسام الشرف. إن بوضرية هو الذي أوصى كلوزيل بتعيينه بايا على التيطري. يبدو أن مصطفى بن اعمر كان قليل الخبرة، وأنه لم يسع لهذا المنصب، ولكن المنصب سعى إليه، وأنه كبعض زملائه قد قبله كرها.. للمزيد أنظر سعد الله، محاضرات في تاريخ الجزائر، المرجع السابق، ص 25 - 27 - 32.
- ¹¹ - سعد الله، أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، ج. 2، ط. 2، بيروت، دار الغرب الإسلامي، 1990، ص. 94.
- ¹² - القبائل : و هي التي شاركت في المقاومة، عبرت عليها المراجع الفرنسية بمصطلح les Kabyles، ورد ذلك عند كامى روسي (Camille Rousset) وبيليسي دي رينو (Pélissier De Reynaud) وهذا خطأ، انظر.
- Rousset Camille, **Les commencements d'une conquête, L'Algérie de 1830 à 1840**, Paris, 1887, p. 44
- ¹³ - محمد بوطيبي، مقاومة بايلك التيطري للاحتلال الفرنسي 1830 - 1870، مجلة دراسات تاريخية، المجلد 06، العدد 01، 2019.
- ¹⁴ - Rousset, Op. cit., p. 54.
- ¹⁵ - Rousset, Ibid., p. 55.
- ¹⁶ - de Reynaud Edmond Pélissier, **Annales Algériennes**, Alger, 1854, p. 145.
- ¹⁷ - Rousset, Op. cit., pp. 56 - 60.
- ¹⁸ - Rousset, Ibid., p. 62.
- ¹⁹ - أحمد بومزراق: تشير إليه المصادر الفرنسية ومنها كامى روسي وبيليسي دي رينو بتسمية وليد بومزراق للتصغير من شأنه (Oulid Boumezrag)، بينما سعد الله يطلق عليه تسمية سي أحمد.
- ²⁰ - قبيلة أولاد مختار : من أقوى قبائل التيطري، زعيمها بن عودة المختاري الذي لعب دورا بارزا في مقاومات الجنوب، من أكبر مؤيدي الأمير، انحرف في مقاومة أولاد سيدي الشيخ، انظر.. سعد الله، الحركة الوطنية، ج 1، المرجع السابق، ص 27.
- ²¹ - نفسه، ص 27.
- ²² - Ammar Mouhoub, Op. cit., p. 33.
- ²³ - Pélissier, Op. cit., p. 202.
- ²⁴ - د محمد بوطيبي، مقاومة بايلك التيطري للاحتلال الفرنسي 1830 - 1840، مقال، "مجلة دراسات تاريخية"، المجلد 6، العدد 01، 2019.

- 25- أحمد بومزراق: الابن الأكبر لباي التيطري مصطفى، قاد المقاومة ضد فرنسا ثم انضم إلى أحمد باي، انظر: سعد الله، الحركة الوطنية، المرجع السابق، ص 133-134.
- 26- بن زعموم: زعيم قبيلة فليسة، قاد مقاومة المتيجة ومنع الفرنسيين بداية من دي بورمون من التقدم إلى البليدة. قاد الهجومات على العاصمة وعلى المزرعة النموذجية، انخرم في معركة بوفاريك ضد بارتيزان، انظر: نفسه، ص ص 120-133.
- 27- الحاج علي السعدي: من أهم مرابطي العاصمة، حفيد سيدي السعدي، دفن مدينة الجزائر 1710، كانت زاويتهم في جهة ضريح سيدي عبد القادر الفعلي، زميل بن زعموم، رافقه في مقاومة المتيجة، صاحب فكر، خليفة الأمير عبد القادر في بلاد القبائل ما بين 1836 - 1837، توفي في 1843، انظر: نفسه، ص ص 127-133.
- 28- الشيخ محي الدين بن الصغير بن سيدي علي امبارك: مرابط من زاوية القليعة، عين في منصب أغا العرب في فترة بارتيزان، إلا أن الأمور قد تغيرت في عهد كلوزال الذي ساءت علاقاته معه. تعرضت زاويته إلى التخريب والمصادرة وأخذ أفراد عائلته كرهائن، انضم إلى الأمير، عين كخليفة على مليانة، خلفه بعد وفاته ابن أخيه البطل بن علال، انظر: سعد الله، الحركة الوطنية، المرجع السابق، ص ص 60-61.
- 29- مزرعة حسن باشا: مساحتها ألف هكتار، استولى عليها الفرنسيون وحولوها إلى مزرعة نموذجية، كانت تقع قرب الحراش، انظر: سعد الله، الحركة الوطنية، المرجع السابق، ص 44.
- 30- بيار بارتيزان (Pierre Berthezène): حاكم عام على الجزائر بعد كلوزيل، قاد الحملة الثانية على المدية في 1836، هزم فيها، ليترقى في سنة 1799 م إلى رتبة نقيب ثم عقيدا فجنرال سنة 1811 م، شارك في العديد من الحروب التي خاضتها فرنسا، كما شارك في الحملة الفرنسية على الجزائر، للمزيد انظر: غربي وآخرون، المرجع السابق، ص 112.
- 31- الجدول من اجتهاد الباحثة.
- 32- بيار بارتيزان (Pierre Berthezène): حاكم عام على الجزائر بعد كلوزيل، قاد الحملة الثانية على المدية في 1836، هزم فيها، ليترقى في سنة 1799 م إلى رتبة نقيب ثم عقيدا فجنرال سنة 1811 م، شارك في العديد من الحروب التي خاضتها فرنسا، كما شارك في الحملة الفرنسية على الجزائر، للمزيد انظر: غربي وآخرون، المرجع السابق، ص 112.
- 33- لواء: وحدة عسكرية مكونة من 2 إلى 5 كتائب، عدد أفرادها يتراوح ما بين 3 إلى 5 أفراد، انظر:
- [https://ar.wikipedia.org/wiki/%D8%B3%D8%B1%D9%8A%D8%A9_\(%D9%88%D8%AD%D8%..](https://ar.wikipedia.org/wiki/%D8%B3%D8%B1%D9%8A%D8%A9_(%D9%88%D8%AD%D8%..) 14/05/2024
- 10: 21 AF%D8%A9_%D8%B9%D8%B3%D9%83%D8%B1%D9%8A%D8%A9(
- 34- فيلق: وحدة عسكرية مشكلة من 2 إلى 5 فرق، وعدد أفرادها من 20 ألف إلى 50 ألف فرد، ويقودها عادة ضابط برتبة لواء، انظر: نفسه.
- 35- كتيبة: وحدة عسكرية مكونة من 4 إلى 6 سرايا، وعدد أفرادها ما بين 300 إلى 1000 فرد، ويقودها عادة ضابط برتبة مقدم أو عقيد، انظر: المرجع السابق.
- 36- سرية: وحدة عسكرية مشكلة من 3 إلى 5 فصائل، يتراوح عدد أفرادها من 62 إلى 190 فردا، ويقودها عادة قائد برتبة نقيب، يستخدم مصطلح السرية في التشكيلات البرية والكوكبة عند الفرسان والبطارية عند قوات المدفعية، انظر: نفسه.
- 37- Rousset, Op. cit., p. 122.
- 38- https://ar.wikipedia.org/wiki/%D9%81%D9%8A%D9%84%D9%82_%28%D9%88%D8%AD%D8%AF%D8%A9_%D8%B9%D8%B3%D9%83%D8%B1%D9%8A%D8%A9%29#/media/%D9%85%D9%84 تصفحناه 2024/05/14 في 21:15
- 39- Rousset, Op. cit., p. 123.
- 40- Rousset, Ibid., p. 127.
- 41- سعد الله، الحركة الوطنية، المرجع السابق، ص 120.
- 42- بيليسي دو رينو (Pélissier de Reynaud): أحد ضباط الجيش الفرنسي الذين اهتموا بكتابة التاريخ، تكون بمدرسة "سان سير" وانضم إلى جيش الحملة الفرنسية على الجزائر بصفته ضابطا في هيئة الأركان العامة للقوات المسلحة. تولى رئاسة المكتب العربي لمدينة الجزائر ما بين (1835 - 1833).
- 43- دي لاموريسيار 1806 - 1865 Louis Juchault de Lamoricière: رجل عسكري وسياسي فرنسي، لعب دورا كبيرا في احتلال الجزائر وفي مطاردة الأمير عبد القادر، من مؤسسي الزواف، أصبح فيما بعد وزيرا للحربية في 1848، انظر: غربي وآخرون، مرجع سابق، ص ص 321-322.
- 44- Rousset, Op. cit., p. 140.
- 45- محمد بوطيبي، مرجع سابق، ص 59.
- 46- Rousset, Op. cit., p. 143.
- 47- محمد بوطيبي، مرجع سابق، ص 59.

⁴⁸ - Rousset, Op. cit., pp , 143 - 146.

⁴⁹ - سعد الله، الحركة الوطنية، مرجع سابق، ص 125.

⁵⁰ - Rousset, Op. cit., p. 145.

⁵¹ - سعد الله، الحركة الوطنية، مرجع سابق، ص 125.

⁵² - Ammar Mouhoub, Op. cit., p. 21.

⁵³ - محمد بوطيبي، صورة سكان المدية في الكتابات الاستعمارية الفرنسية خلال القرن 19م (بودان وكورتيس أمودجا)، صفحات من تاريخ المدية في الفترة الحديثة والمعاصرة، "سلسلة منشورات مخبر الدراسات التاريخية المتوسطية عبر العصور"، الجزائر، 2022م، ص 273.

⁵⁴ - Ammar Mouhoub, Op. cit., p. 36.

⁵⁵ - محمد بن الحسين: كان خليفة الباي بومزراق في التيطري، عينه كلوزيل بايا على التيطري في 1836 لمضايقة الأمير عبد القادر الذي دخل المدية، ألقى عليه القبض وسلم إلى الأمير عبد القادر، انظر: سعد الله، الحركة الوطنية، مرجع سابق، ص 137.

⁵⁶ Ammar Mouhoub, Op. cit., pp. 13 - 54

⁵⁷ - محمد بوصاريب: لا نعرف عنه الكثير عن ماضي محمد بوصاريب كما قال الدوق روفيقو سوى أنه شخصية نافذة، اختيرت من بين أغنياء المدية وقادرة على الحكم وذات نوايا حسنة، انظر:

- Ammar Mouhoub, Op. cit., pp, 13- 54.

⁵⁸ من الشخصيات الممضية على الرسالة الحاج محمد هوقا، السيد البرباس، رجب كوها، السيد حاج حسان جماعجي، محمد بن عريب، للمزيد انظر: Ammar Mouhoub, Op. cit., p. 74

⁵⁹ نص الرسالة موجود، انظر. Ibid., p. 59.

⁶⁰ Pélissier, Op. cit., T1, p. 262.

⁶¹ كتب باللغة الفرنسية على هذا الشكل (Mu'ti Ben Al Sergui)

⁶² سعد الله، الحركة الوطنية، ج 1، ص 134.

⁶³ Ammar Mouhoub, Op. cit., p. 60

⁶⁴ Ammar Mouhoub, Ibid., p. 60.

⁶⁵ - محمد هوقا: شخصية كرجلية نافذة، عين كحاكم على المدية، طالب بعودة الأتراك إلى الحكم عن طريق باي قسنطينة، كان من المقربين من باي بومزراق في التيطري، انضم فيما بعد إلى جيش أحمد باي، نفاه الأمير إلى مليانة ثم إلى تاقدمنت، انظر:

- Ammar Mouhoub, Op. cit., p. 71.

⁶⁶ Ammar Mouhoub, Op. cit., p. 67.

⁶⁷ Ammar Mouhoub, Ibid., p. 68.

⁶⁸ Ammar Mouhoub, Ibid., p. 68

⁶⁹ Ammar Mouhoub, Ibid., p. 71

⁷⁰ - سعد الله، الحركة الوطنية، مرجع سابق، ص 125.

⁷¹ Ammar Mouhoub, Ibid., p. 76.

⁷² يحي بوعزيز، المرجع السابق، ص 148.

⁷³ Ammar Mouhoub, Op. cit., p. 89.

⁷⁴ Ammar Mouhoub, Ibid., p. 90.

⁷⁵ الحاج قارة: أحد أعيان المدية وعلمائها، كرجلي، صهر الباي بومزراق، عين فيما بعد كمفتي على مدينة دلس، قدم تقريراً واقعياً إلى بيربروغر حول عام 1855 موسى الدرقاوي الذي سبق وأن تعرف عليه 1855، ترجمه قورقوس، نشر في المجلة الإفريقية العدد الأول منها عام 1856-1857 Gorguos

⁷⁶ الحاج موسى بن علي بن الحسين المدعو بوجمار: مصري حضر إلى الأغواط عبر طرابلس الغرب، انتمى إلى الطريقة الدرقاوية، حاول السيطرة على المدية، حارب الأمير بعد معاهدة دي ميشال، هزمه الأمير في معركة عمورة قبل المدية، عاد إلى مسعد، شارك في مقاومة الزعاطشة مع الشيخ بوزيان أين استشهد، انظر للمزيد:

(El Hadj Moussa, ou l'homme à l'âne et l'émir Abd El Kader), in RA, 1856, pp. 43-49.

⁷⁷ بن توهامي، المصدر السابق، ص 297 - 303.

⁷⁸ (El Hadj Moussa, ou l'homme à l'âne et l'émir Abd El Kader), in RA, 1856, pp. 43-49

⁷⁹ Ammar Mouhoub, Op. cit., p. 110.

7. قائمة المصادر والمراجع:

المصادر بالعربية:

1. بفايفر سيمون، مذكرات سيمون بفايفر، أو لمحة تاريخية عن الجزائر، تق وتغ أبو العيد دودو، الجزائر، 1974.
2. حمدان بن عثمان خوجة، المرأة، منشورات المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الجزائر 2006.

المصادر باللغة الأجنبية:

1. Berbrugger Adrien, "Chroniques", in RA, N12, Aout 1858.
2. Berbrugger Adrien, El Hadj Moussa, ou l'homme à l'âne et l'émir Abdelkader, in RA, 1856.
3. Cortés Léon, Monographie de la commune de Médéa, imprimerie Algérienne, Alger, 1909.
4. De Beaudicour Louis, la guerre et le gouvernement de l'Algérie, Paris, Sagnier et Bray, 1853.
5. De Reynaud Pélissier Edmond, Annales Algériennes, nouvelle édition, corrigée et continuée jusqu'à la chute d'Abdelkader, Librairie Militaire, Alger, octobre 1854.
6. Federmann Henri, Aucapitaine Henri, "Notice sur l'histoire et l'administration du beylik de Titteri", R.A, 1867..
7. Rousset Camille, Les commencements d'une conquête, L'Algérie de 1830 à 1840, T1 et T2, Paris, Librairie Plon, 1887.

المراجع باللغة العربية:

1. سعد الله أبو القاسم، أبحاث وراء في تاريخ الجزائر، ج.2، ط.2، بيروت، دار الغرب الاسلامي، 1990.
2. _____، الحركة الوطنية الجزائرية، ج.1، ط.1، دار الغرب الاسلامي، 1992.
3. بوعزيز يحي، الأمير عبد القادر رائد الكفاح الجزائري سيرته الذاتية وجهاده، دار ابن خلدون، تلمسان، 2002.
4. غربي وآخرون، العدوان الفرنسي على الجزائر (الخلفيات والأبعاد)، منشورات المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر 1954.

الرسائل باللغة العربية:

- بليدي خليدة، التيطري في العهد الاستعماري 1830-1870، دراسة مونوغرافية. أطروحة لنيل دكتوراه، جامعة الجزائر، 2016-2017.

الرسائل باللغة الأجنبية :

- Ammar Hakima Mouhoub, Les premières résistances Médéa et Titteri au lendemain de 1830, mémoire pour un diplôme d'études supérieures, université d'Alger, 1971.

المقالات بالعربية:

1. بلحميسي مولاي، مدينة المدية عبر العصور، "مجلة الأصالة"، العدد 2، ماي 1971.
2. بوطيني محمد، مقاومة بابلوك التيطري للاحتلال الفرنسي 1830-1840، "مجلة دراسات تاريخية"، المجلد 6، العدد 1، الجزائر 2019.

شبكة الأنترنت

1. https://ar.wikipedia.org/wikimedia/%D9%85%D9%84%D9%81:Army_By_Size.png
2. <https://gallica.bnf.fr/ark:/12148/bpt6k106605k/>
3. <https://www.facebook.com/103169235014458/photos/a.103194325011949/289486379716/p75/?type=3&locale=MSMY>
4. <https://www.facebook.com/Atlasblideen/photos/a.747343778675089/3208874685855307/?type=3>
5. <https://www.facebook.com/Atlasblideen/photos/a.747343778675089/3598582693551169/>
6. <https://www.pop.culture.gouv.fr/notice/joconde/50520007648>